ما أثاره الفكر الاستشراقي من استثارة لتراث العرب، جعل الرد هو السبيل الوحيد لإبطال بعض المزاعم وتصويب بعضها، وهذا ما انعكس على الأدب، حيث أينع ثمره وطفق يلوح إلى الوجود والعالمية.

وانكب زمرة من الباحثين أمثال جمال الدين الأفغاني وقاسم أمين محمد عبده مصطفى الرافعي محمد حسين هيكل، محمد كرد على ، العقاد... لهذا السبيل الجارف.ملتزمين بخطة رسم نظريتها العالم الفيلسوف أبو نصر الفارابي+لإحكام أي صناعة يجب أن تتوافر ثلاث أركان:

1-استيفاء معرفة أصولها

2- القوة على استنباط ما يلزم في تلك الأصول من موجودات تلك الصناعة. 3- القوة على تلقى المغالطات الواردة عليه في ذلك العلم، وعلى سبر آراء من سواه من الناظرين فيه، وكشف الصواب من سوء أقاويلهم فيها، وإصلاح الخلل على من اختل رأيه منهم"

وفي الأخير نعتقد أننا قدمنا بإيجاز صورة مقتضبة عن أثر بعض المستشرقين في الأدب العربي، حيث اتضح جليا أن المدرسة الاستشراقية لعبت دورا كبيرا في اثر النهضة العربية الحديثة وساعده مساعدة فعالة في القيام بدراسة الأدب ونشر أرائه وبحث أفكاره...

وفي الأخير تقبلوامني فائق التقدير والاحترام، وبارك الله في عملكم وملتقاكم، فان امكنني الحضور لهذا الملتقى بهاونعمت، وان لم احضر فطلبي ان تنشروا هذا المقال في احدي مجلاتهم العلمية الحكمة وتخبروني بذلك.

الأستاذة : خـــذري عالمـــــة / جامعة جيجل

+ - فرنز روتنزال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي تر.أنيس فريحة،مراجعة وليد عرفات، دار الثقافة ، بيروت، 1961

نثر المنظوم بين النقد والإبداع

تـــطرح هذه المداخلة التي سنحاول أن نشارك بها في الملتقى الوطني النقدي الخاص بتفاعل وتقاطع المعارف في الثقافة العربية والتي حصرناها في إشكالية نثر المنظوم في الأدب العربي باعتباره جنسا أدبيا يتقاطع فيه الإبداع والنقد الأدبي مما شكل ظاهرة فنية ذات قيمة أدبية لها نظامها الخطابي المتميز بآلياته وأنساقه .

لقد ظلت هذه الظاهرة خارج دائرة الاهتمام في الدارسات الأدبية القديمة ولم يلفت إليها إلا بوصفها خطابا مساعدا كان يلجأ إليه في مواقف الاستدلال والحجاج والتمثيل ،ولم ينظر إليه على أنه شكل أدبي قائم بذاته ولتجليه ذلك ستحاول هذه المداخلة أن تثير التساؤلات التالية :

– هل يعتبر النص النثري امتدادا للنص الشعري أم هو لون مستقل ؟ – هل نثر المنظوم نوع من الإبداع أم أنه نوع من النقد ؟– أيهما أكثر جمالية وأكثر تأثيرا في المتلقي ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يمكن أن تثار حول هذه الإشكالية خاصة بعد التحولات الجذرية التي طرأت على الفكر النقدي العربي خلال هذه الفترة التي اتسمت بالموسوعة الثرية التي تعالقت فيها كل الثقافات الوافدة على الحضارة العربية الإسلامية ولتجلية جوانب هذه الإشكالية سنركز على نقطتين:

1) نثر المنظوم باعتباره نصا إبداعيا مضاهيا للنص الشعري 2) نثر المنظوم باعتباره عملية نقدية مولدة لنص جديد أو كتابة على كتابة .

1) نثر المنظوم باعتباره نصا إبداعيا مضاهيا للنص الشعري : إن نثر المنظوم عملية فنية معقدة، تعمل على حل المنظوم وإعادة تشكيله في ضوء الصورة الذهنية التي يختزنها الكاتب في ذاته ،والتي تطمح إلى أن ترتفع المعاني الشعرية إلى مستواها الفني العالي وهذه العملية تقتضي– بطبيعة الحال– صياغة جديدة للنص الشعري المراد حله في صيغة نثرية رفيعة المستوى ،وذلك بإزالة ترتيبه المعقود ووزنه ورتابته القائمة ،وتضفي عليه طابعا من صنع الذات وأدبيتها ومن هنا تحدث بعض الدارسين عن فكرة حل المنظوم ،وإعادة ترتيبه،باعتباره مظهرا من مظاهر الرؤية الأدبية،ومعنى هذه الفكرة

أن النص الشعري المستهدف بالحل مادة حيادية خاصة،يضفي عليها المؤلف دلالته وفنياته ويشكله من خلال تقنياته بحيث يسوي بين الواقع الشعري والنثري ،ذلك لأن مهمة الناثر في حقيقة الأمر هو حل المنظوم إلى عناصره الأولية ثم ترتيب هذه العناصر الجديدة التي تتجدد باستمرار مع الحركة الإبداعية للكاتب .

فالنثر وجه من وجوه التعبير « تتركب العبارات فيـــه تارة مرسلـــة ،وطورا مسجعة ،كما جرت العادة في الإنشاء وعند القدماء ،لكن هذه العبارة تختلف من حيث الإيجاز والمساواة والإطناب .هكذا تحدد نثر المنظوم في الدارسات العربية القديمة » [1]

إن عملية حل المنظوم في صيغة المنثور ،عملية ملازمة للمؤلف،فإذا كان النص الشعري ثابتا فإن النص النثري ينبغي أن يتحرك وأن يتجاوب مع حركة المؤلف الثقافية ،وأن يضيف أشياء جديدة للنص غير موجودة في النص الشعري،لأن المبدع الحقيقي من يستطيع فهم النص الشعري محل النثر والعمل على تفتيته إلى جزيئاته الأولية مع إضافة صور فنية تجعل من النص الجديد عملا إبداعيا فيه من ذاتية الفنان .هكذا يكون المبدع بعيدا عن الوصف الخارجي والسطحي للنص الشعري،لأن النص الشعري يصف نفسه بنفسه،وهو أكثر تعبيرا عن نفسه من كتابة بعض الكتاب والأدباء،وأكثر منهم إبداعا ولكي يتجاوز الناثر مرحلة المنظوم يتعين عليه فهم معنى هذا الأخير والعمل على تجاوز معناه عبر عملية حله وتجزئته إلى عناصره ثم صياغة تلك العناصر صياغة جديدة وفق الرؤية النفسية أو الجمالية للكاتب وفي هذه المرحلة يتحقق حل المنظوم المتميز بالإبداعية وبذلك يصبح لعمله معنى وجدوى .

وفي هذا الإطار يتعين علينا أن نشير إلى بعض المؤلفات التي أسست لهذا اللون الفني والتي تظهر فيها العملية الإبداعية جلية كأبي العلاء المعري في كتابه ملقى السبيل والمتمثل في رسالة صغيرة في موضوعات متعددة يبدأها نثر ا ثم ينظم هذا النثر شعرا إنه يعبر عن المهارة اللغوية

---

[1] –د. شفيق يوسف البقاعي ، نظرية الأدب ، منشورات جامعة السابع من إبريل ،ط1 ،ليبيا ،ص 222

والإبداعية ،ولكنه من زاوية أخرى يكشف عن عمل مضمر لم ينتبه إليه في حينه ولم يكن في مقصده عند كتابته .

وهذا النوع من المنثور يعد من المحاولات البارعة في الأدب العربي يتميز بدقة المعنى وطرافته ،وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى وتكشف عن لغة ذات نسق مخالف لما هو مألوف في اللغة العادية نحو قوله« النفس تصرفت وانصرفت ،والأعضاء تألفت ثم تلفت،والأقضية بحق هتفت فأعقبت المحلة لكن عفت ،كم شفيت المدلفة فما اشتفت ينظمه فيقول :

نفس الفتى في دهره تصرفت وإنصرفت
تألفت أعضاؤه وافترقت إذا تلفت
أقضية الله دعت فأسمعت إذ هتفت
ما أعقبت ديارهم من الروايا بل عفت
كم شفيت مريضة من مرض فما اشتفت[1]

فالمنظومة الشعرية أعلاه ،هي إعادة صياغة للقول المنثور السابق ،إنه نوع من تصارع أنه نوع من تصارع النصوص وتداخلها ،وتحويل شكلها على النحو الذي سمي في النقد المعاصر بالتعاليات النصية التي تنتج أشكالا من النصوص من خلال تحويل أشكال أخرى لا ريب أن الكاتب كان يقصد إظهار المهارة في الكتابة النثرية الإبداعية والشعرية معا مما يجعل من الصعوبة التفرقة بين النصين من حيث الدلالة ،فالأفعال نفسها والأسماء هي نفسها والسجعة تتفق مع القافية في المنظومة الشعرية والجمل القصيرة تكاد تكون واحدة في كلا النصين إلا في بعض التباينات التي لا يمكن أن تشكل خلافا .

فالممعن في متن النصين يجد أن النص المنظوم يسعى في توسيع المجال الأدبي للنص النثري وتفصيل ما جاء فيه بحيث تصبح دلالته في متناول القارئ العادي تلك المهمة التي أنجزها الكاتب

[1] – رسائل البلغاء ، نقلا عن زحام لخطابات ،ص 285

،فعبارة النفس تصرفت وانصرفت جاءت مجملة تحتاج إلى تفصيل وقد فعل ذلك الشاعر حيث حدد النفس بأنها نفس الفتى وحدد المجال الزمني بأنه الدهر فأضحى الشعر هنا نصا مفسرا لنص في حاجة إلى تفسير ،واللافت للنظر في هذا الأمر أن الشعر يشرح النثر ،وهو أمر في غاية الغرابة لأنه ليس من المعتاد أن يشرح الشعر النثر، وإنما العكس هو المعمول به .

إن التجربة التي قام بها المعري والآخرون قربت بين الصناعتين الشعر والنثر فما يمكن أن يقال شعرا يمكن أن يقال نثرا ولولا الوزن والقافية لكانا شيئا واحدا . استطاع المعرى في رسالته « ملقى السبيل» أن يظهر براعة وكفاءة إبداعية عالية كما هو واضح في كتبه ،غير أنه في هذه الرسالة انتهج فيها منهجا مغايرا لما سبق ،وإن قامت على تظافر الشعري والنثري وما من شك في أن المعري كان يعرف ذلك معرفة دقيقة ومن أجله ذهب يتفنن على الناس في نصوصه بهذه المواد التي قدمناها حتى يظفر بإعجابهم وقد استمرت به رغبته تلك حتى استطاع أن يبدع هذا اللون النثري مع سالفيه ولاحقيه وأن يوصله إلى ذروته الفنية ،وشكلت بذلك فنا جديدا متميزا عن الألوان النثرية المعروفة .وتبعه في ذلك « الثعالبي » في كتابه « نثر النظم وحل العقد » هذا الأخير الذي يظهر براعته في نثر النظم وحل العقد بطريقة إبداعية لها وقعها عند المتلقي ونعطي نموذجا من كتابه السابق وهو رسالة في حل قول عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :

ولست منافسا في المال خلقا ولكني أنافس في المعالي
أحب بأن يكون الناس دوني طوال الدهر في كرم الفعال
ولا والله ما أحببت مالا لشيء قط إلا للنوال
أفيد ويستفيد الناس مني وما يبقى يصير إلى الزوال[1]

[1]– الثعالبي نثر النظم وحل العقد ،تحقيق أحمد عبد الفتاح تمام ط1 مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ،د.ت،ص 4

ويمضي الثعالبي فـــي نثر الأبيات السابقة بطريقة فنية شبيهة بالشاعريـــة فيها توسيع للدلالة غير أنه لا يبتعد كثيرا عن النقطة المركزية للنص فيقول :

« من نافس في لأمور لتتسع موادها ،ويتصل أمدادها ويتوفر إعدادها وتكثر بالناطق يقتني أجناسه ،والصامت يخنق أكياسه ،فإني منافس في المعالي والمكارم،وأرى تحمل المغارم من أعظم المغانم ،ولا أتكثر لإ بمواساة الأحرار ،وانتزاعهم من أظفار الدهر الغدار وأحب أن يكون الناس دوني في حسن الفعال وحميد الخصال،ووالله أرفع الإيمان وأعلاها في شرائط الإيمان ،أني أحب المال إلا لبذله ،والجود به على أهله ،وأعتقد أن ما أعطيه يبقى ويخلد وأن الذي أبقيه يفنى وينفد ،وكيف لا أكون كذلك وأنا من خدم ملك هو المجد أنشأ نفسا والكرم تمثل شخصا ،وله همته في الجود تعزل السماك الأعزل سموا وتجرد ذيلها على المجرة علوا ،فلو أن البحار مدده والسحاب يده ، والجبال ذهبه لقصرت عما يهبه ،فما أجمل شمل المال إلا لتفريقه ،ولا أذهب مع الإمساك في طريقه ،ولا أرهب الفقر وأنا جار البحر ،ولا أخاف الضلال وأنا أسري في ضوء البدر ،وما هو إلا من إذا وصف فقد عرف إذا ذكر فقد شكره وليس ذلك إلا الملك العادل الميمون والخلف من المأمون أبي العباس مأمون بن مأمون ،خوارزم شاه أعز الله نصره في الملك المصون

وأطال الله بقاءه لتسهيل الحرون ومسيرة المحزون »[1]

ولا شك أن هناك محفزين رئيسيين لوضع الثعالبي شرحه :

المحفز الأول : هو التقرب من شخص خوارزم شاه عن طريق اللغة التي كانت بضاعة رائجة ذات فعالية وتأثير في المتلقي ،فالأمراء والخلفاء كانت تكفيهم المدحة ولو كانت كاذبة ،ومعظمها كذلك ،عن الهدايا والأموال وهذا باب من أبواب الشعر العربي ،عرف بالتكسب وفيه حديث طويل .

أما المحفز الثاني : فهو الإبداع الأدبي الذي ينتج لغة تتحدى لغة أخرى بل إنتاج لغة أخرى عرف عنها أنها تأتي في المحل الثاني بعد الشعر ،تتحدى لغة الشعر ذاته وهو ما يعني « أن القارئ

[1]– الثعالبي،نثر النظم وحل العقد ،ص 20–21

للنص النثري يدرك الفرق في الحجم بين النص النثري والشعري مما يعني بداهة أن النص النثري قد أمد النص في بنيته ودلالته وأنه أضاف إليه ما لم يكن فيه وحين يأخذ القارئ في القراءات يدرك أنه يقرأ ما يشبه النقد التأثري، فالثعالبي أطلق لنفسه العنان في إنشاء لغة أدبية تستمد أصولها من النص الشعري لكنها تتفرع لتحلق بعيدا عنه، إنه يفكك النص ويدخل بين أعماقه يحاول أن يستعمله لتعبير عن مراده لا عن

مراد الشاعر» [1]

ومن ثم يؤدي هذا الخطاب وظفتين :

أ- وظيفة تبليغية قائمة على الشرح الموجه إلى شخص بعينه هو خوارزم شاه الذي حول النص يكون في خدمته

ب- وظيفة تعليمية تمكن المتلقي من فهم الشعر من خلال عملية التفكيك والتوزيع التي قام بها الكاتب أو عملية الحل وهي المصطلح في نص الثعالبي .

ويستطرد الثعالبي في شرحه لهذه المنظومة الشعرية ،مستعملا ضمير المتكلم ناسبا الكلام لنفسه متعاليا أن يكون شارحا للنص ،بل يرى أنه مبدع له ولكنه في نهاية كل رسالة نجده يتخلى عن كل ذلك ناسبا تلك الأعمال الفنية لشخص خوارزم شاه .

إذن هناك ثلاث شخصيات تتصارع فيما بينها هي شخصية الشاعر ثم الناثر ثم الملك وتبع لهذه المراكز الثلاث تحول الخطاب من سياق الشعر إلى سياق النثر ثم إلى سياق الملك مما أدخل النص في السياق التداولي للمهام وهذه الدوال الثلاث تعكس صراعا بين أحد أطرافها وهو الناثر .الذي يمثل الشفرة التي يتمحور حولها النص .

---

[1]- عبد الله العشي،زحام الخطابات ،ط1 دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع تيزي وزو ، الجزائر ، 2005 - ص 74

وتشكل لغة الخطاب في نص الثعالبي من أبنية لغوية تقع في ذروة النص المعرفي المتصل بالبلاغة والأدب وتمتاز « بخلوها من السجع والجري على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء »[1] وتسعى إلى دمج وعي المتلقي بالنص

ومن الواضح في كل ما سبق أن العلاقة بين النص والمتلقي كانت علاقة مزدوجة أو بمعنى آخر علاقة جدلية تتحرك من النص إلى المتلقي كما تتحرك من المتلقي إلى النص بقصد تقبله و الاقتناع بحمولته

ويلاحظ الباقلاني أن « التميز التعبيري لا يتم تحقيقه إلا بتمام النضج الفني إذ يجدأ الإبداع عادة بالتداخل التعبيري بينه وبين من سبقه أو عاصره ثم ينتهي الأمر بأن يخلص إلى طريقة تخصه، وفهم ينم عنه» [2]

ونتيجة لهذا التصور يكون النظر في الكلام باعتباره انعكاسا لصاحبه وهو انعكاس يشمل كل ما يتعلق به فنيا وأدبيا . ولا يمكن تحقق كل ذلك إلا إذا تم التداخل بين الداخل والخارج — فنثر المنظوم لا يمكن أن يستحق مواصفاته الأدبية إلا إذا صدر من طبيعة فنية رائعة .

وغير بعيد من منهج الثعالبي نجد الهمذاني ينتهج المنهج نفسه في كتابه « المنثور البهائي» الذي قام على نثر حماسة أبي تمام بطريقة تتميز عن سابقيه بملامح واضحة ومتكاملة تتجلى في تحرره من سلطة النص الشعري ،فلم تعد تلك النصوص سوى محفز له لإنتاج نصوص مماثلة أو أفضل منها ويوضح الهمذاني طبيعة عمله والغرض منه في مقدمة كتابه « فإعتمدت أن أتتبع تلك المعادن والكنوز وأستخرج منها المحاسن والعيون وأحل عنها ذلك النظام المعقود والنطاق المشدود لتسيح في البلاد وتسير في العباد، فتناولها المسامع وتتداولها المجامع وتلقفها الأفواه وتقترن بها الأشكال والأشباه فينفع استغلالها ويكثر استعمالها ويكون أجر الساعي في ذلك أجر من أحيا مواتا وأظهر

---

[1]– الهمذاني ،المنثور البهائي ، دراسة وتحقيق ،د / عبد الرحمان بن عثمان بن عبد العزيز الهليل ،ط2 ،مكتبة الملك فهد الوطنية ، 2002 ص 97

[2]– الباقلاني – إعجاز القرآن ،تحقيق السيد صقر ،دار المعارف ، القاهرة ،1954،ص 221

ركازا أو أنبط ماء وأنشأ غراسا وأجر من عمد إلـــى صاغات من ذهب النضارلا متعة فيها إلا لأعيـــنالنظار »[1]

وقد سعى المؤلف إلى حل المنظوم من الشعر وتحويله إلى نوع من الإبداع الفني المتميز بهدف جعل المعاني الشعرية معاني متداولة بين كافة الناس مثلما يتضح في قول » ولحرصي على تسهيل محجة من يسلكها وتقريب غاية من يطلبها قـــد نصبت عليها الصوى وقربت منها الخطا ،ووقعت تحت كل كلمة مأخوذة من الشعر باسم قائله ،ثم أتيت بالأبيات المجتمعة في كل فصل بعد تكامله ليكون كل غريب إلى صاحبه منسوبا وبه معروفا وفي محاسنه معدودا وباسمه موسوما »

ونعطي نموذجا لحل المنظوم من كتاب المنثور لبهائي لندلل به علي طريقته في هذه الصناعة من خلال قيامه بنثر بيت المتنبي وآخر للبحتري

قال المتنبي :

وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم أبجل عنده وأعظم

قال البحتري :

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذال فيها هباء

لم يبني عليها نصا نثريا في قوله :

وقد كنت أفوز منك بحظ وخطوة ،وإكرام عندك وتكرمة فيجتمع لي بك الميل ، والمال « والتفضل والأفضال،تزيد اغتباطي باللقاء الجميل على اعتدادي بالعطاء الجزيل فلما بدالك في عادة الشر ،واقتصرت بي علـــى عائدة البر ،فأوليتني العرف صرفا ، وصرفت عني الأنس صرفا

[1]– الهمذاني – المنثور البهائي ، ص 86

صارت صلاتك جفاء ،فطارت هباتك ، ،ولن يغني التنويل ،إلا بالتنويـــه ولا يهني الجميل إلا بالتنجيل»[1]

وهذا الحل والنثر يعد لونا من ألوان النثر ونوعا من أنواع التأليف يعبر عن تطور النثر في عصره وتشكله في قوالب جديدة في مرحلة من مراحله وهذا يعود إلى تمتع المؤلف بثقافة واسعة .

إذا تركنا الهمذاني وأبا العلاء والثعالبي إلى من جاء بعدهم من كتاب نثر المنظوم وجدناهم يذهبون جميعا هذا المذهب،ومن ينظر إلى كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم لابن الأثير يعرف أنهم كانوا جميعا يلتزمون هذا المذهب في صناعة نثرهم وكان كل واحد منهم يحاول أن يكون له شأن أي شأن في هذا الإبداع الجديد وهو الأمر الذي دعا ابن الأثير لأن يصنع ما يشبه نظرية لظاهرة نثر النظم وحل العقد للكيفيات التي ينبغي إتباعها في ممارسة هذه الصناعة إذ تعتبر« ظاهرة حل الشعر عملية تدريب على الكتابة الأدبية والإنشاء ،يلجأ إليها المعلمون في تعليم الناشئة كيفية الوصول إلى المعنى والتعبير عنه بلغة تتحدى الشعر،ويسمي ابن الأثير هذا العمل الصناعة،مما يعني أنه أصبحت فنا من الفنون أو علما من العلوم وأنها في حاجة إلى وضع قواعد لها ،بعد أن أصبحت – متداولة بين عامة المتأدبين»[2]

ويخيل للدارس كأنما تحولت صناعة النثر في تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولا تاما " إذ أصبحت أشبـــه ما تكون بصناعـــة أدوات الترف والزينة فهي تحف تنمق في أروع صورة للتنميق ،وكل كاتب يتوفـــر على إحداث هذه التحف توفرا يتيح لـــه أن يشارك في آياتها وبدائعها وإنه ليعنت نفسه في سبيل ذلك إعناتا بعيدا [3]

---

[1]– الهمذاني، المنثور البهائي ،ص 97

[2]– عبد الله العشي ، زحام الخطابات ، المرجع السابق ،ص 76

[3]– شوقي ضيف – الفن ومذاهبه في النثر العربي ،دار المعارف بمصر ، القاهرة ،ص 227

ويوضح ابن الأثير هدفه من هذه الصناعة بقوله « قد منا القول في أن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى دواوين كثيرة لفحول الشعراء ،فإذا فعل ذلك فاليدمن في حل الأبيات الشعرية زمنا طويلا ،حتى تحصل له الملكة ،ليكون إذا كتب كتابا ،أو خطب خطبة جاءته المعاني سانحة وبارحة »[1] وهذا ما يؤكده القلقشندى في توجيهه للكتاب بضرورة الإكثار من حفظ الشعر لأنـــه « إذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه ،غزرت لديه المواد ،وترادفت عليـــه المعاني وتواردت على فكـــره ،فيسهل عليـــه حينئذ حلها ،ووضعها في مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة» [2]

إذن فقد تجاوز نثر المنظوم الحدود الفاصلة بين الشعر والنثر وتحول إلى كفاءة إبداعية حاملة لمتعة فنية ومعرفية .

نثر المنظوم باعتباره عملية نقدية : ونعني بذلك الرؤية النقدية الكامنة في النصوص النثرية التي ينتجها الكاتب من خلال نثره لنصوص شعرية باعتبارها النواة واللبنة الأولى في انطلاقته هذه العملية التي يمكن أن نطلق عليها لغة ثانية أو كتابه على كتابة ،فهي ممارسة نقدية في حد ذاتها إضافة لحملها لمواقف أخرى نستشفها من استنطاقنا لنثر المنظوم ونذكر منها :

أ-الاختيارات : وتمثل مجموعة الاختيارات الأدبية الشعرية أو النثرية التي يصطفيها الكاتب ومن ثم يقيم عليها أدبه الشعري أو النثري كالمفضليات والإصمعيات والحماسات والمنتخبات الشعرية ،وظاهرة الاختيارات ليست بالظاهرة الجديدة بل هي ظاهرة متجذرة منذ القدم في أدبنا وما تزال قائمة إلى يومنا كمختارات البارودي وأحمد شوقي في العصر الحديث .

وعمليت الاختيار لا تصدر عن الكاتب بدون وعي منه، و إنما هي صادرة عن إدارة واعية لكن دون تصريح منه بذلك فضلا على عدم إيراده للمقاييس التي استند عليها في عملية

---

[1]- ابن الأثير – الوشي المرقوم في حل المنظوم ،تحقيق جميل سعد،ط2 مطبعة ثمرات الفنون القاهرة ،ص 23

[2]- القلقشندى – صبح الأعشى في صناعة الإنشاء وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ،ج1،ص 281-282

الاختيار،والدارس لهذه النصوص المختارة يستنتج « أن وراء كل عملية اختيار تكمن مقاييس غير مباشرة يمكن استنتاجها من طبيعة النصوص الأدبية المختارة أعني طبيعتها اللغوية والدلالية والفنية أو من المذاهب الأدبية للشعراء المختارين أو المراحل الشعرية أو الانتماءات الإيديولوجية والمذهبية أوغير ذلك»[1]

وهذه العمليـــة النقديـــة – الاختيارات – تدل على ذوق رفيع وعمق بصيرة لأنها تعكس الرؤية النقدية عنـــد الكاتب،إذ ليس في وسع أي كان أن ينتقي نصوصا راقية بمثل هـــذه النصوص من مجموع الشعر العربي أضف إلى ذلك كونها تعكس ذاتية معينة تختلف من كاتب لآخر فلو وازنا بين المفضليات والأصمعيات لوجدنا أن هناك نقاط تقاطع واختلاف في عملية الاختياروهذا يدل على تباين الذائقة الفنية عند كل واحد منهما وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد «لا يحسن الاختيار إلا من يعلم ما يحتاج إليه من الكلام»[2]

ولتوضيح ذلك نسوق قولا للهمذاني يبرر فيه اختياره لشعر من حماسة أبي تمام إذ يقول « فمن جملة ما اتفق بعد العرض المقصود تأليف حماسة في الشعر لزمت فيها أسلوبها ولم أتجاوز مطلوبها »[3]

إذن فالهمذاني من أهدافه التي توخاها من اختياره لحماسة أبي تمام هو تأليف حماسة نثرية تكون على شاكلة الحماسة الشعرية وهذا ينم عن مدى تأثره بالحماسة وإعجابه بها « فالنص المختار بمثابة المعادل الموضوعي الذي يحول رؤية الكاتب إلى رؤية يحملها عنه النص ،فكما أننا في العمل الأدبي الإبداعي نصل إلى رؤية الكاتب من خلال نصه فإننا في الاختيار الأدبي نصل أيضا إلى الرؤية النقدية للناقد ولكن من نصوص المختارة»[4]

---

[1]– عبد الله العشي ، زحام الخطابات ، 126

[2]– الوشاء ،الموشي، دار صادر ،بيروت، 1995 ،ص10

[3]– المنثور البهائي ،ص 97

[4]– عبد الله العشي ،زحام الخطابات ،ص127

إذن فعملية الاختيار في نثر المنظوم تمثل عملا نقديا مضمر لا يتضح إلا بعد عملية بحث وتحليل كبير .

قضية القديم والحديث : لقد نالت قضية القديم والحديث حظا وافرا في الشعر العربي في العصر العباسي الأول بين النقاد ولم تلبث أن انتقلت إلى كتاب النثر فتناولوها وضمنوها كتاباتهم وانحاز كل كاتب لفريق ،فنهم من أيد القديم ومنهم من اتجاه إلى الجديد أو المحدث منطلقين في كل ذلك من رؤاهم الفكرية والمذهبية في حين ظل البعض موضوعيا فلم يقدم القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته وإنما كان المعيار عنده واضحا وهو مقياس الجودة الفنية وهذا ما نجده واضحا في رأي الهمذاني حين يقول « ...لأني لم أختر من المختار إلا الخلاص الذي عرض على النار فخرج وافي العيار ولولا صفاء جوهره ،و زكاء عنصره ،وكمال أنقه وجمال رونقه لما حسن في النثر كما حسن في النظم » [1] إذن فمدار الاختيار قائم عنده على أساس الجودة والاستحسان ومن ثم تتبع ما هو عذب الترسل أليق وبطريقة الكتابة آنس، كما أنه في عملية اختياره لم ينظر إلى الشعراء ولا إلى طبقاتهم وزمانهم فقد تنوعت اختياراته فشملت عددا كبيرا من الشعراء فيهم المشهور و المغمور والمكثر والمقل والفحل والمتقدم والمحدث ومن له ديوان ،ومن تناثر شعره في طيات الكتب كما اختار لشعراء عصره كابن نباتة السعدي والشريف الرضي لكن كما سبق وذكرنا فإن لأشعار أبي تمام النصيب الأوفر فكان همه المنظوم لا الناظم ومن ثم أجرى أشعار المحدثين مجرى أشعار المتقدمين معلنا بذلك رأيه الصريح في القديم والجديد وبهذا وسع مجال الاختيار وتعدى به الحدود التي سبق أن وقف عندها بعض السابقين، واقفا ضد أنصار القديم الذين رأوا المزية والفضيلة فيه وحده لا تتعداه .

فمقياس التفاضل عنده هو الجودة الفنية وليس قائله وهو متأثر برأي الجاحظ الذي كان لا يعتقد بتفضيل قديم على محدث في قوله « وقد رأيت أناسا منهم يبهرجون أشعار المولين

[1] – االهمذاني ،المنثور البهاني ،ص 98

ويسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلا في رواية للشعر غير بصير بجوهر مايروي،ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان »[1]

فالهمذاني ينظر إلى البنية النصية بصرف النظر عن سياقاته الخارجية (المؤلف) ويمكن بالتالي أن نطلق عليه مصطلح البنيوي بالمفهوم الحداثي .

ج- نثر المنظوم باعتباره نصا على نص أو كتابة على كتابة:إن نثر المنظوم يقوم على إنتاج نص نثري انطلاقا من نواة نصية شعرية،ومن أهداف الناثر جعل عملية التلقي ممكنة والاستجابة الجمالية أمرا ممكنا أيضا فعملية الشرح هنا عملية أو ممارسة نقدية بحيث تقوم استراتيجيتها على فك هذا النص وإعادة بناءه من خلال نص جديد يقوم على أنقاض النص الشعري أو بمعنى آخر هو إعادة كتابة للنص المشروح،هي كتابة من نوع آخر عملها نقل النص الأولى إلى بنية ثانية«ويبقي هذا النقل قائما بلا نهاية يتجدد معه النص بلا نهاية[2]

فالنص الشعري بنية ثابتة والكاتب هو الذي يعيد تشكيل النص ويضع دلالته من جديد لأن القراءة تفاعل بين النص الشعري ووعي الكاتب يقول وهب رومية « إن مفهوم القراءة المعاصرة مقترن بالاكتشاف وإعادة إنتاج المعرفة وهو لذلك مفهوم خصب يمتد من التفسير إلى التأويل ويؤكد أن الذات القارئة فيه لا تقل أهمية عن الموضوع المقروء »[3]

إذن فقد أنتجت آلية الشرح خطابا نثريا تولد بعضه من بعض ،فسجل نسيجا تعبيريا قويا يفتح النص على أكثر من دلالة ومن ثم جعلنا الكاتب نستيقظ على ثروة تعبيرية ودلالية خصبة .وهو ما مكن من إنشاء خطاب جديد له خصوصيته من خلال خطاب آخر أي إنتاج معرفة متنوعة قائمة على النص الشعري

---

[1]- الجاحظ ، الحيوان ،تحقيق ،عبد السلام هارون ،ط1 ،مطبعة نصطفى البابي الحلبي وأولاده ،ص 89

[2]- محمد مفتاح ، التشابه والاختلاف نحو منهجية شمولية ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ط1،1996،ص 99.

[3]- وهب رومية ،شعرنا القديم والنقد الجديد ،سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد ،2007 ،1996 ،ص 23

وفي الحقيقة فإن نثر المنظوم دل على تماس بين الخطاب الشعري والنثري ،إذ أن أدبيتهما وليدة هذا التماس،وهذا التداخل يعد أداة من أدواته في الكشف عن جمالية النص الأدبي، والتي تكشف عن نوع من المشاركة بين الذات الناثرة للنص الشعري والذات الغائرة في النص المنثور ،فهذه المشاركة بين الذات تجسد نوعا من الإهتمام بذات النص الأدبي وكل اهتمام بهذا النص الأدبي هو نشاط نقدي في النهاية .

كما أن عملية النثر لا تقتصر على شرح ما في النص من معنى بل تسعى إلى تجاوز ذلك إلى مستويات أعلى « بقصد ممارسة عملية الخلق لأن الكاتب بهذا المعنى يخلق النص أنه خلاق آخر يواكب خلاق النص ،والنص الإبداعي هو بهذا المعنى أفق من الدلالات أومن الحقائق » [1]

وهذا ما يؤكد حذق الصائغ في صياغته ،فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العليا و إلا أحسن التصرف وأتقن التأليف .

فالناثر يتجاوز النص المنثور إلى معان أخرى منها ما هو منسلخ من النص الشعري ومنها ما هو خارجه ،وعائد إلى مخزونه الفكري والثقافي والمعرفي إذ أن هذا المخزون يتحكم بوعي أو بغير وعي في النص النثري من حيث البنية السطحية « الألفاظ » والبنية التحتية « المعاني » كما يتحكم في عملية النمو التعبيري من حيث انتظام أجزاء الكلام والتئام بعضه ببعض ومن ثم يصير الكلام في حقيقته صورة نفسية انعكست في شكل تعبيري يحمل في ذاته رؤية نقدية .

ويتضح بالتالي أن رغبة الشارح تتجاوز نطاق الشرح والقراءة فقط بل أنه يكمن وراء موقفه هذا موقف آخر هو إمكانية إنتاج معرفة قائمة على النص لتوليد معرفة موازية له وعلى هذا يتشكل نثر المنظوم من الفن والفكر والصنعة وما يستوجب من إتقان وبهذا يصير تعبيرا عن عبقرية فردية ولم يعد تأقلما مع شكل مثالي – ولكنه – على نحو من الاتحاد شكل لغوي لفكرة فردية ترتبط بها كارتباطها بالسلوك والطباع [2]

---

[1]– القلقشندى ،صبح الأعشى ،ج7 ،ص 288

[2]–نجيب أندراوس ،المدخل في النقد الأدبي ،مطبعة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،د.ت ،ص 50،51

وقـــد ترتب على هـــذه النظرة ،أن نظر الدارسون إلى نثر المنظوم على أنه وسيلة تتيح لهم مجالات للإمتياز والتفرد حتى يمكن نقل أفكارهم وترويجها فـــي مجال النثر الفنـــي « ورأى الناثرون أن التعبير الحق هو الذي يشكل فن الجمال والحقيقة "[1]

فهذا الإبـــداع الأدبي النقدي ينتج لغة تتحدى لغة أخرى ،بل إنتاج لغـــة عـــرف عنها أنها تأتي في المحل الثاني بعد الشعر ،تتحدى لغة الشعر ذاتـــه وهو ما يعني أن القارئ للنص النثري يـــدرك الفـــرق فـــي الحجم بين النص النثـــري والشعري مما يعنـــي بداهـــة أن النص النثري قد أمد النص في بنيتـــه ودلالته ،وأنه أضاف إليه ما لم يكن فيـــه " يعنـــي الإتيان بعناصر إضافية التي تجعل إدراك عناصر النص أكثر بروزا [2]

فالكاتب الناثر أطلق لنفسه العنان فـــي إنشاء لغة أدبية تستمد أصوالها من النص الشعري لكنها تتفرع لتحلق بعيدا عنه " إنـــه يفكك النص و يدخل بين أعطافـــه،يحاول أن يستعمله ليعبر عن مراده لا عن مراد الشاعر[3]

ومن ثم يمكن أن نلاحـــظ انزياحا بين "النص الأصلي باعتباره لغـــة ذات حمولة دلاليـــة متعددة ونص التفسير باعتباره لغة شارحة لمستويات اللغـــة الأولـــى وهذا كي لا يحصل ذوبان النص الأصلي في نصوص تفسيراته (الواحدة / المتعدد)[4]

إذن فنثر المنظوم حاول النفاذ إلى عمق التجربة الشعرية وخلق خطابا أدبيا جديدا متأسسا من الخطاب الشعري وبهذا يمكننا أن نقرأ هذا الخطاب بوصفه لغة ثانية أو كتابة على كتابة .

وبهذا يشكل نثر المنظوم ظاهرة لا فتة في التراث النثري العربي ففيه يتضافر الشعري بالنثري تضافرا نقديا ،ويتحدى فيه الشعر النثر أوالنثر الشعر ،فالعمل الذي قام به الدارسون في نثر المنظوم

---

[1]– عبد الله العشي . زحام الخطابات ،ص 74

[2]– حسين خمري . نظرية النص . من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ،منشورات الاختلاف ،ط1 ،2007

[3]–عبد الله العشي ، زحام الخطابات ،ص 74

[4]– د. حسين خمري ،نظرية النص ،ص 85

قرب بين الصناعتين الشعر والنثر فما يمكن أن يقال شعرا يمكن أن يقال نثرا ولولا الوزن والقافية لكانا شيئا واحدا.وهذا ما أشار إليه أبو حيان التوحيدي بقوله « وأحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه ...وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ونثر كأنه نظم »[1]

إذن فنثر المنظوم هو عمل إبداعي يحمل في طياته جانبا نقديا مضمرا لا يتضح إلا بعد عمق وتحليل .

[1]- أبو حيان التوحيدي ،الامتناع والمؤانسة ،ج2 ،تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ،المكتبة العصرية ،بيروت ،د.ت ،ص 135